من أدب العراق :

المرأة فى شعر الرصافى

للشيخ محمد رجب البيومي

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

أما حافظ فقد جعل الأم مدرسة كصاحبه ، وزاد فرفعها إلى قمة عالية فكانت عنده أستاذ الأساتذة الذين ملأوا الدنيا وشغلوا الناس ، كما شبهها بروض زاهر ، يورق ويثمر إذا تعهده الحيا بالرى ، وأعلن تبرمه بحالتها الراهنة ، فذكر أنها ليست أثاثاً يُقتنى فى الدور ولا درراً تُصان فى الأحقاق ، فيجب أن تتبوأ مكانها فى المجتمع . وهو مع هذه الصيحة يحتاط أكل احتياط ، وينظر إلى البداية والنهاية معا فى وقت واحد ، فيخوف من السفور ، ويحدد مهمة المرأة الاجتماعية ، فهى ربة بيت تنهض بأعبائه ، وتضطلع بشؤونه .

قال شاعر النيل :

أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً ... بين الرجال يجلن فى الأسواق
يدرجن حيث أردن لا من وازع ... يحذرن رقيبه ولا من واق
يفعلن أفعال الرجال لواهياً ... عن واجبات نواعس الأحداق
فى دورهن شؤونهن كثيرة ... كشؤون رب السيف والمزراق

وإذن فحافظ متحفظ فى ثورته ، وكل ما يريده أن تخرج الفتاة إلى مدرستها ثم ترجع إلى البيت الذى تديره ، ولا كذلك الرصافى ، فهو يمشى مع السفور إلى أبعد شوط ، ويرى أن المرأة كالحمامة لها ريش يجب أن تطير به ، وسجع يلزم أن تردده ، وإلا لما خلق الله لها ذلك ، وكان التعلل بالشريعة نغمة متصلة ، يرددها المحافظون فأطاب الشاعر فى دحض هذه الحجة ، وأخذ يكرر قوافيه المتلاحقة فى نقضها . ومما قاله فى ذلك فوق ما قدمناه :

وأكبر ما أشكو من القوم إنهم ... يعدون تشديد الحجاب من الشرع
وذلك أنا لا نزال نساؤنا ... تعيش بجهل وانفصال من الجمع
أفى الشرع إعدام الحمامة ريشها ... وإسكانها فوق الغصون عن السجع
فقد أطلق الخلاق منها جناحها ... وعلمها كيف الوقوف على الزرع

وقصائد الرصافى فى هذا الموضوع أكثر من أن تحصر ؛ فقد كان يرى الدفاع عن حقوق المرأة أمانة فى عنقه ، يجب أن يؤديها بغير تمهل وانتظار . وقد أفلح الشاعر فى دفاعه أى فلاح ، وعاش حتى رأى المرأة الشرقية كما أحب لها من تقدم وصعود ، فماد يمجد فى مواهبها ، ويبالغ فى مكانتها ويفخر بنهضتها التى تمت فى وقت يسير . وما ظنك بزارع كادح بذل جهده الدائب فى شق التربة وغرس الثمرة ، وصادف من الصخور ما كاد يهشم معوله ، ويبدد قوته وما زال يتعهد غرسه بالماء حتى رآه — بعد لأى — جنة مورقة تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، هكذا كان معروف ! !

وهنا نتساءل بعد ما أسلفناه من جهاد الشاعر عن موقفه العاطفى من المرأة ، وهل ملكت يوماً زمام فؤاده ؟ وماذا أوحت إليه من فاتن الغزل ورقيق النسيب ؟ ؟

وقبل كل شىء نذكر أن الرصافى قد تزوج مرة واحدة فى حياته ، أثناء إقامته بتركيا ، ولم يكتب له التوفيق كزوج مسؤول ، فطلق امرأته بعد مدة وجيزة ، وألقى العبء عن كاهله ، كما صنع شاعر النيل ؟

كما لم يحدثنا أحد من معارفه بأنه أحب فتاة معينة ، أو أنشأ علاقة مع امرأة بذاتها ، وإن كنا نعلم أنه كان إباحياً متحللا يبحث عن شهوات الجسد من أى طريق . وأنت تنظر إلى ماروى عنه من صادق النسيب ، فنجده ينظر إلى النساء بمنظار واحد ، فهو يغازل هذه وتلك دون أن يدخر فى قلبه شجنا مبرحاً ، أو لوعة حارة . وإذن فمعروف بهوى الحسن مجرداً عن ذاته كما يراه فى كل لون ووضع ؛ فهو يحب البيضاء إذ تتألق كالبدر ، ويعشق الحمراء إذ يتذكر بها طلوع الشمس ، ويميل إلى السمراء والصفراء جميعاً فى وقت واحد !! وقد يظن بعض الناس أن هذا خيال شاعر لا حقيقة له ، والواقع غير ذلك ، فالجمال لا يقف عند لونه ، وإنما يتعداه إلى الخفة والرونق . وكأنى بالرصافى وقد وجد قلبه أعظم من أن يختص بواحدة ، فهام بجميع الملاح . اسمعه يقول

وقفت عليكن قلبى الذى ... يمربه الحب مر السحاب
فمنكن أحببت هندى وتى ... والفيت عذبا بكن العذاب
فمنكن بيضاء ما مثلها ... (عدا سمرة الخد) ألا القمر
فتلك التى طاب لى وصلها ... كليلة البدر طاب السمر

ومنكن حمراء جذابة حكى وجهها الشمس عند الطلوع
أرى عينها وهى خلابة فأمسك بالكف منى الضلوع

ومنكن صفراء فى لونها كأن قد تردت شعاع الأصيل
إذا ما تمشت على ضفها أصخت هبوب النسيم العليل

ومنكن سمراء تحكى الدمى وتبعث فى القلب ميت الهوى
على شفتيها بلوح اللمى فتوقد فى القلب نار الجوى

ومنكن من هى مثل الرياح لها فى ذرى كل قلب هبوب
تريد غلاب جميع اللاح وتبغى عذاب جميع القلوب

فمنكن طرا بوادى الهوى أهيم وإن لم تعد عائدة
ألا إن حبا بقلبى انطوى كثير فلم تكفه واحدة

وطبيعى أن يكون الرصافى فناناً ماهراً فى نظرته إلى المرأة ، فهو يصفها فى دقة وحذق وكأنما أحاط بحركاتها واحدة فواحدة . وقد صور ملهى للرقص فى بغداد ، فكدنا نراه فى القاهرة . والذى يهمنا منه تلك اللوحة الرائعة التى رسمها للراقصة الفاتنة ؛ فقد تكلم عن ثوبها الحريرى فخيل إلى أنه حائك ماهر يصفه لزميله كى يصنع مثله . وانتقل إلى حركاتها السريعة فكاد يسبقها فى الخفة والوثوب ، على أنه يطير معها فى الجيئة والذهوب ، ولن أترك القارىء حتى أضع أمامه جانباً من هذه اللوحة ، فالفن يشوه بالتلخيص أقبح تشويه ، قال معروف :

خطرت والجمال يخطر منها فى حشا القوم جيئة وذهوبا
وعلى أرؤس الأصابع قامت تتمطى تبختراً وثوبا
يعبس الأنس أن تروح ذهابا ويعيد ابتسامه أن تؤوبا
نحن منها فى الحالتين ترانا ترقب الشمس مطلعاً ومغيبا
حركات خلالها سكنات يقف العقل بينهن سليبا
وخطى تفضح العقول اتساقاً نظمتها تسرعا وديبا
لو غدا الشعر ناطقا بلسان لتغنى بوصفها عندليبا
أظهرت فى الجمال من كل عضو لعبا كان بالعقول لعوبا
مشهد فيه للحياة حياة تترك الواله الحزين طروبا

وله من هذا السياق النضيد شىء كثير .

هذا وقد رأيت بعض من كتبوا عنه غب وفاته يعدون ما تنزل به فى المرأة تقليداً واحتذاء ، وحجتهم فى ذلك أن الشاعر لا يهدف إلى فتاة معينة ، وأنا أقول : إن من الخطأ البين ألا نفرق بين ما تفتتح به القصائد من عبارات التشبيب وبين ما يجيش بصدر الشاعر فيهتف به . نعم قد يكون الأديب فى إنتاجه متجها إلى عناصر غير الحب واللوعة ، ولكن هل يكون معنى ذلك أنه تناسى عاطفته التى تختلج فى خفاياه ، وتتجاهل غريزته التى تموج فى خلاياه ، فإذا قال غزلا فاننا قيل له من فتاتك ؟ ما اسمها ؟ وفى أى بيئة نشأت ؟ وبأى ثقافة تميزت ؟ وإذا مر الشاعر فى طريق مزدحم ، فوقعت عينه على حسناء ساحرة ثم اختفت عنه فى لجج الزحام الحاشد ، دون أن يعلم عنها أى شىء ، أنقول له : حطم يراعك ، ومزق طرسك ، لأن فتاتك غير معروفة باسمها وصفتها فلا ينبغى أن تنسب بها وإلا كنت صانعا أى صانع ! ! هذا والله شىء عجيب ! !

إن شاعراً يحترم فنه كمعروف لا يمكن أن ينشىء غزلا دون أن تشتجر فى صدره العواطف ، ولذا أن نعد من تشبيبه التقليدى ما يجىء عرضاً عن المرأة فى موضوع خاص ، يهدف إلى فكرة خاصة ، لا تتصل بالحب من قريب أو بعيد ، كقوله فى قصيدة « العالم شعر » .

وبيضة خدر إن دعت نازح الهوى أجاب ألا لبيك يا بيضه الخدر
تهادت تريني البدر محدقة بها أوانس إحداق الكواكب بالبدر
فلله ما قد هجن لى من صبابة ألفت بها طى الضلوع على الجمر
تصافح إحداهن فى المشى أختها فتحر إلى نحر، وصدر إلى صدر
مررن وقد أقصرت خطوى تأدبا وأجمت أمرى فى محافظة الصبر
فطأطأن للتسليم منهن أرؤسا عليها أكاليل ضفرن من الشعر
فألقيت كفى فوق صدرى مسلماً وأطرقت نحو الأرض منحنى الظهر
وأرسلت قلبى نحوهن مشيعاً فراح ولم يرجع إلى حيث لا أدرى
وقلت وكفى نحوهن مشيرة ألا إن هذا الشعر من أجل الشعر

فهذه الأبيات من قصيدة وصفية ، نظمها الرصافى ليعلن أن الطبيعة ديوان شعرى ممتاز ، وأخذ يقلب صفحات الديوان ، فرأى فى سكون الليل قصيدة عامرة عدها من (أحسن) الشعر ، ورأى فى طلوع الشمس قصيدة بارعة عدها من (أبدع) الشعر ، ورأى فى وحشة الفاير قصيدة باكية عدها من (أفجع) الشعر ،

اتجه إلى المرأة فنظم الأبيات المتقدمة لأنه يرى في ركب حواء قصيدة ساحرة من (أجمل) الشعر، وإذن فالكلام هنا عن المرأة تقليدي ساذج، حيث لم تكن صاحبة الفكرة التي تقوم عليها القصيدة. ومن الظلم البين أن نسحب هذا الحكم على جميع ما ترنم به معروف عن المرأة. وليت شعري من ينكر صدق العاطفة في قوله عن فتاة مجهولة.

فتنت اللائك قبل البشر ... وهامت بك الشمس قبل القمر
ومرّ بك السمع قبل البصر ... وغنى بك الشعر قبل الوتر
فأنت بحسنك بنت العبر

يروح الشتاء وتصحو السما ... ويأتي الربيع بما نمنما
فيطلع فوق الثرى أنجما ... ويبتسم الزهر بعد الظما
فأنت ابتسامة ذاك الزهر

لطرفك بالفتر كم قد روى ... نشيد الغرام بهد القوى
وما أنت شاعرة في الهوى ... ولكنما الشعر فيك انطوى
فآية حسنك إحدى الكبر

فهذا الشعر لو روى لشاعر ممن اشتهرت صاحبته لعد من قوافيه المختارة، فهل يليق بعد ذلك أن نتساءل عن الملهمة، من هي؟

فإذا لم نجد الإجابة الواضحة، حكمنا على الشاعر بالتقليد والصنعة دون تريث!! الحق أننا سطحيون.

ولا بد لنا أن نتكلم عن اتجاه الرصافي في أقاصيصه الاجتماعية فقد جعل المرأة عنصر الأقصوصة الهام، فلا مناص له من أن يصور خوالجها الهامة، ونوازعها الراجفة، مما يتطلب دراسة عميقة لنفسية حواء. ولهذا كان الشاعر فلسفي النظرة دقيق المنحى، وإن خدع قارئه برونق الديباجة وسلاسة التركيب. ولو ذهبنا نستقصي ما روى له في هذا المضمار لا متد بنا حبل البحث، ولكننا نضع أمام القارئ قصيدة «أم ليتيم» كنموذج لطريقة الشاعر، فهو يريد أن يندد بالتحزب الديني، والتعصب المذهبي، وما يجر ذلك من نقص في الأموال والأرواح، فقام في قصته برحلة إلى الأحياء المعدمة، في هدأة الليل، وسمع أنيناً مؤلماً يرن في كوخ بائس فمرنه، حتى إذا بدأ الصبح أتاه، فرأى به أرملة حزينة — هي بطلة قصته — وأمامها طفل جائع تعلله بالطعام، ويندفع معروفاً يصف لنا الأم الجائعة وما وقعت فيه من التناقض الغريب، حيث جمعت بين الضحك والبكاء في لحظة واحدة، فهو يقول.

وقفت لديها والأسى في عيونها ... يكلمني عنها وإن لم تكلم
وساءلتها عنها وعنه(١) فأجهشت ... ببكاء وقالت أيها الدمع ترجم
ولما تناهت في البكاء تضاحكت ... من اليأس ضحك المازئ المتهكم
ولكن دموع العين أثناء ضحكها ... هواطل مهما يسجم الضحك تسجم
فقد جمعت نثرا من الضحك مفعما ... إلى محجر باك من الدمع مفعم
فتذري دموعا كالجمان تناثرت ... وتضحك عن مثل الجمان المنظم
فلم أر عينا قبلها سال دمعها ... ببكاء وفيها نظرة المتبسم
وقلت وفي قلبي من الوجد رعشة ... أمجنونة يا رب فارحم وسلم

ويسير الشاعر فيذكر حنان الأم الرءوم وكيف ضمت إليها ابنها في شفقة وعطف، وماذا قال لها الطفل وهو يسأل عن أبيه؟ وكيف أجابته بما يريده الشاعر من أقصوصة فوصفت ما دار بين المسلمين والأرمن من مذابح تجرى دماؤها باسم الدين؟ استمع إلى كل ذلك في قوله.

وظلت له(٢) ترنو بعين بجودها ... بفذ من الدمع الغزير وتوأم
سلي ذا الفتى يا أم أين مضى أبي ... وهل هو يأتينا مساء بمطعم
فقالت له والعين تجرى غروبها ... وأنفاسها يقذفن شعلة مضرم
أبوك ترامت فيه سفرة راحل ... إلى حيث لا يرجى له يوم مقدم
مشى أرمنيا في المعاهد فارتمت ... به في مهاوي الموت ضربة مسلم
على حين ثارت للنوائب ثورة ... أتت عن حزازات إلى الدين تنتمي
فقامت بها بين الديار مذابح ... تخوض منها الأرمنيون في الدم
ولولاك لا خترت الحمام تخلصا ... بنفسي من أتعاب عيش مذمم

ومهما يكن من شيء فالمقام لا يسمح أن نلم بغير هذه القصة الشجية، ذات المغزى الرائع، مما نظمه الشاعر الكبير، ففي كل قصة منظر مختلف لفتاة بائسة، داهمتها الخطوب. ولا ضير على الرصافي إذا أكثر من تصوير هذه المآسي الدامية فقد نشأ في أمة مزقتها العلل، وتحرشت بها الأحزان، فتقاطرت من عينه الدموع!!

أين أنت يا معروف؟ وكيف خمدت جذوتك الملتهبة، وسكن فؤادك الخافق الجياش؟ ووقف ذهنك الموار.

سكت فلم نسمع غناءك مشجياً ... فيا بلبل القطر الشقيق ترنم!

(بالكفر الجديد) محمد رجب البيومي

(١) ، (٢) الضمير فيهما يعود إلى الطفل.